الظـــاهر بيبرس
وحضارة مصر فى عهده*

تأليف الأستاذ جمال الدين سرور

للأديب حسن حبشى

تُرَى إلى أى مدى بلغ اهتمامنا بتاريخنا القوى ... ؟ خطر ببالى هذا السؤال وأنا أتصفح هذا الكتاب الذى حاول فيه مؤلفه الشاب أن يرسم صورة لعصر فى تاريخ مصر له قيمته من الناحيتين القومية والدينية . ومما يسترعى انتباه المتتبعين للدراسات العالية هو انصراف أكثر الباحثين إلى نواح خاصة من التاريخ والأدب انصرافاً كلياً ، على حين أن هناك نواحى فى كلا هذين الفرعين لما تزل بكراً ، ومن ثم كان اهتمام الأستاذ جمال الدين سرور بتناول هذه الناحية أمراً يشكر عليه ، فلقد خصص من حياته الجامعية عامين لدراسة عصر الظاهر بيبرس ، فخرج بهذا الكتاب القيم الذى منحته كلية الآداب من أجله درجة « أستاذ فى الآداب »

إن كلا من الظاهر بيبرس وعصره موضوع جديد يتطلب من الباحث الرجوع إلى كثير من المخطوطات ، ومرجع ذلك قلة من يعنيهم تناول تاريخ مصر بعد القرن التاسع الهجرى تقريباً ، بل وقبل ذلك بكثير ، حتى ليخيل إلى الكثيرين أن مصر كانت تعيش طوال هذه الفترة على هامش الحوادث السياسية فى العالم الاسلامى ، على حين يتراءى العكس لمن يتعمق بعض الشىء فى دراسة ظواهر هذا العصر ... لقد كان العصر الطولونى فى مصر ، فهل كان فى تاريخ أمة من أمم الشرق حينئذ ما يبزه من الناحية الاجتماعية أو السياسية ؟ لقد آثرنا هذا العصر بالذات لدلالته على حيوية مصر فى زمن كانت الدولة العباسية لا تزال فيه على جانب شديد من البطش والقوة . وتوالت على مصر بعد ذلك عهود لدول مختلفة كان موقف مصر فى أثنائها كلها فى صلتها بالخلافة العباسية موقف الند للند ، لا التابع للمتبوع

ومن العصور الطريفة فى تاريخ مصر عصر الأيوبيين ثم المماليك ، لما امتازت به هذه الفترة فى الشرق والغرب بأنها كانت عصر تلاحم دينى تعدى حدود الجدل إلى امتشاق الحسام فكانت الحروب الصليبية التى ظلت زمناً طويلا أهرق فيه من الدماء ما يدعونا لتسميتها بالمجازر البشرية

وفى أوائل عهد الدولة المملوكية كانت الخلافة العباسية مشرفة على الدمار ، فلقد ظهر المغول فى فارس ، وتقدموا شطر أطراف الدولة ينتقصون منها شيئاً فشيئاً فدمروا مملكة خوارزم شاه وحملوا الدمار والهلاك ، وكانوا يضمرون من الشر للاسلام ما تنبئ عنه محالفاتهم الكثيرة مع البابوات وملوك أوربا لهدم الحنيفة السمحاء . وتم للمغول بعض ما أرادوه ، فأزالوا الخلافة من بغداد ثم تحولوا شطر مصر ، وكانت — كما هى اليوم — معقل الاسلام ، فأخذت حملاتهم تنقض على أطرافها من جهة الشام ، ولكن قيض الله للاسلام إذ ذاك هذه الدولة الفتية المملوكية فوجد رجالها فى محاربة التتر ما يتفق وما نشأوا عليه من الفروسية . والعجيب فى أمر هذه الدولة الناشئة أنها استطاعت أن تصد عادية قوم وطأوا أرض أوربة وأشرفوا على سهول المجر ، وقضوا على الدولة الخوارزمية والخلافة فى بغداد

وكان من رجال المماليك الظاهر بيبرس ، فوجه جهوده بعد أخذه مقاليد الحكم بعد قطز إلى صد التتر فهزمهم عند البيرة كما هزمهم من قبل عند عين جالوت . والواقع أن ما بذله بيبرس من صدهم ونجاحه فى هزيمتهم قد مكن لهيبة مصر فى العالم الغربي حيث كانت الدول المسيحية تترقب الفرصة للانقضاض على مصر التى اضطلعت بأعباء السياسة ومواجهة العالم الغربى . كذلك خافه أمراء البيت الأيوبى لهزيمته قوماً كان يظن

(*) طبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٨ فى ٢١٨ صفحة من الحجم الكبير